أثر علم الكلام والعقيدة في آراء الجاحظ القرآنية

د.ظاهر محسن جاسم [1]

مدخل:

عُرف الجاحظ بالموسوعية فهو متكلم وأديب وبلاغي وإمام في الاعتزال فلم يكن أسلوبه منطقياً بحتاً ولا أدبياً خالصاً، بل هو بين هذا وذاك، فله قابلية المتكلم الذي يجادل في كلّ شيء ويستعمل مبادئ العقل والمنطق للوصول إلى هدفه، وله أيضا قابلية الأديب الذي لا تشغله الغاية والهدف عن النظر إلى البعد الفني للكلام والاستجابة العاطفية[2]، فضلا عن إلمامه بعقائد المسلمين والأديان الأخرى وآراء المتكلمين من المدارس المختلفة، ولاسيما مدرسة الاعتزال فهو تلميذ النّظّام في هذا المجال وزعيم فرقة من فرق الاعتزال هي(الجاحظية) [3]التي نُسبتْ إليه.

وقد وظف الجاحظ آراءه الكلامية في خدمة القرآن الكريم وإعجازه والردّ على كلّ من ينكر ذلك من الملحدين والمشككين من الأديان الأخرى، والمشبهة والجبرية والقدرية من فرق المسلمين متأثرا في ذلك بالأحداث السياسية والاجتماعية والدينية التي سادت عصره أولاً، وبالأفكار الأجنبية التي وصلت إليهم من الحضارات الأخرى كالفلسفة اليونانية والمنطق الأرسطي ثانيا[4]، وبخاصة عن طريق الأقوام التي دخلت الإسلام وما نشأ جراء ذلك من انفتاح في العصر العباسي فحدثت عملية تأثر وتأثير بين هؤلاء القوم الدخلاء والمسلمين نتيجة للحوار الذي دار بين الأديان[5].

ولما كانت وظيفة علم الكلام إثبات العقائد الدينية والدفاع عنها بإيراد الحجج كان الجاحظ كثير المحاجة والمجادلة، إذ استعمل الحجاج والحوار والاستطراد لإثبات عقائده مما جعله يفوق غيره من الأدباء بشهادة خصومه،ومنهم ابن قتيبة الذي يقول فيه: ((هو آخر

---

[1] استاذ جامعي ، في قسم اللغة العربية ، كلية الآداب - جامعة الكوفة/ العراق

[2] ينظر: الجاحظ، د. وديعة طه النجم:64.

[3] ينظر: الملل والنحل، الشهرستاني:75/1.

[4] ينظر: النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ، فكتور شلحت:32.

[5] ينظر: في علم الكلام، أحمد محمود صبحي:32/1.

المتكلمين المعاير على المتقدمين وأحسنهم للحجة استثارة وأشدهم تلطفاً، لتعظيم الصغير حتّى يعظم وتصغير العظيم حتى يصغر ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه...))[6].

وقد علل المرزباني هذه المقدرة لدى الجاحظ لتبحره في علم الكلام فقد كان((من أصحاب النّظّام وكان واسع العلم بالكلام كثير التبحر فيه، شديد الضبط لحدوده))[7].

فكان يستعمل وسائل عقلية كلامية كالتأويل والقياس والجدل والاستدلال لإفحام الخصم وإثبات الحجة.فقد تناول قضايا كلامية عقدّية منها: نفي التشبيه،ونفي الرؤية،وأسباب النزول،وإعجاز القرآن،وخلق القرآن،وتشريع من القرآن.

كانتْ الحاجة لنشوء علم الكلام هي الدفاع عن الإسلام،لأنه علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية بإيراد الأدلة العقلية ودفع الشبهات عن الدين الإسلامي،والرد على المبتدعة والمنحرفين في الاعتقاد،ويعنى هذا العلم بالاستدلال على العقائد بحجج عقلية ينصر بها أدلته ويفند بها أدلة الخصوم[8].

أمّا أسباب نشوء علم الكلام فهي كثيرة وواسعة، بيد أن ظروفاً موضوعية وأحداثاً وقعت في القرن الثاني للهجرة أدّت إلى نشوئه،ويمكن إرجاعها إلى عاملين اثنين:

الأول عامل خارجي: يكمن في مناظرات الأديان الأخرى للمسلمين في الدين الإسلامي، مما أدّى إلى نشوء صراع فكري بين المسلمين والأديان الأخرى فظهرت مشاكل كلامية عقائدية منها الكلام في صفات الله والتشبيه ورؤية الله وخلق القرآن، مما أدى إلى تعلم المسلمين علم الكلام للدفاع عن دينهم ونصرة نبيهم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) [9]، وكان للمعتزلة أثر كبير في علم الكلام؛ لأنّهم ناقشوا كثيراً من المسائل التي تحرجت الفرق الأخرى من الخوض فيها.

العامل الثاني داخلي: نشأ بسبب انقسام المسلمين بعد وفاة النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وتفرق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلّ واحدة منها تسعى لإثبات أنها الناجية، وظهرت خلافات بين تلك الفرق بشأن مسألة الخلافة والإمامة[10] وجوهرها سياسي ديني

---

[6] تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة:56.

[7] معجم الأدباء، ياقوت الحموي:2102/5.

[8] ينظر: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر،ابن خلدون:850.

[9] ينظر: في علم الكلام، أحمد محمود صبحي:39/1.

[10] ينظر: الملل والنحل، الشهرستاني:13/1.

يقول الشهرستاني(ت548هـ): ((ما سلّ سيف على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كلّ زمان))[11].

وكان النص القرآني أحد العوامل المهمة في نشوء علم الكلام،ويرجع ذلك لسببين؛ الأول:إن هناك آيات متشابهات إذا حملت على الظاهر كانت في التشبيه والتجسيم، والآخر: هناك آيات أخرى دعت إلى التفكير وإيراد الحجج لإفحام المشركين كقوله تعالى:﴿ ۋ ۅۅ ۉ ۉ ې ې﴾[12][13].إن هذه العوامل تظافرتْ فأدت إلى نشوء علم الكلام.

ويرجع أصل علم الكلام إلى فنٍّ بلاغي يسمى المذهب الكلامي نسبه ابن المعتز(ت296هـ) إلى الجاحظ،وأطلق هذه التسمية على هذا الضرب البديعي، الذي يقتضي أن ((يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام))[14]، وبذلك يكون الجاحظ أحد مؤسسي علم الكلام. ويبحث هذا العلم في: الإجابة عن الأسئلة في الإلهيات والعقائد نحو صفات الله أهي عين ذاته أم منفصلة عنها؟ وما المعاد؟ و كلام الله أ مخلوق أم محدث؟ ومجاله الأول البحث عن الحقيقة من جهة، ومن جهة أخرى يبحث في إمكانية إثبات القضايا العقلية الإيمانية عن طريق العقل ومهمة علم الكلام بالدرجة الأولى الإقناع والإثبات وليس العرض[15].

وقد بحث الجاحظ في هذين المنحيين إذ تناول القضايا الإيمانية نحو إثبات النبوة، وخلق القرآن، ونفي التشبيه، ونفي الرؤية بالنحو الآتي:

1ـ نفي التشبيه:

تعود قضية نفي التشبيه إلى أصل التوحيد الذي أجمعت عليه كلُّ الفرق الإسلامية، فحاول المعتزلة نفي جميع التصورات التي تتعارض مع تنزيه الذات الإلهية، فالله عند المعتزلة واحد أحد ليس كمثله شيء سميع بصير، وليس بجسم ولا صورة ولا جوهر، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على الحدوث ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ولا تجري عليه الآفات والعلل ولا يتجزأ، لا تراه الأعين ولا تدركه الأبصار[16].

---

[11] المصدر نفسه:24/1.

[12] سورة الأنبياء:22.

[13] ينظر: في علم الكلام، د. أحمد محمود صبحي:1/ 24-25.

[14] ينظر: البديع، ابن المعتز:53.

[15] ينظر: مدخل إلى علم الكلام الجديد، محمد مجتهد شبستري:30-32.

[16] ينظر: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، الأشعري:99.

والجاحظ بوصفه أحد أقطاب المعتزلة تناول قضية التشبيه في إحدى رسائله وهي (الرد على المشبهة) لاختلاف المسلمين في معنى التوحيد ((فليس يكون كلُّ من انتحلَ اسم التَّوحيد موحداً، إذا جعل الواحد ذا أجزاءٍ وشبَّهه بشيءٍ ذي أجزاءٍ))[17]، لأنه إذا كان ذا أجزاء كان مخلوقاً!!.

فالجاحظ يؤكد أن الذات الإلهية شيء لا ينقسم،فالله ليس بجسم ذي أبعاد كسائر الأجسام، أي ليس له طول ولا عرض ولا عمق[18].

فالتوحيد ليس مجرد تلفظ باللسان، بل يجب نفي كل التصورات التي تدعو إلى الجسمية؛ لأنه لو أنَّ رجلاً قال عندي جذر مائه فكأنه قال عندي عشرة[19]، كذلك لو قال الله واحد، ثم قال عنده يد أو عين أو رجل! كان كمن قال بالتشبيه.

وقد استدل الجاحظ بأدلة نقليَّة سمعية منها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، يقول: وقد((أنبأ الله عن نفسه،وعلى لسان نبيه [صلّى الله عليه وآله وسلّم] فقال:﴿ ٹ ٹ ٹ ٹ﴾[20]))[21].

وسبيل الجاحظ هنا هو الكناية بحسب رأي الزمخشري؛ لأنّ لا فرق في قوله (ليس كالله شيء)، وقوله :﴿ ٹ ٹ ٹ ٹ﴾ إلا ما تعطيه دلالة الكناية من فائدة، أي كأنهما عبارتان متعاقبتان على معنى واحد، وهو نفي المماثلة عن ذاته[22]، والآية بعد ذلك محكمة لا تحتمل التأويل.

أمّا الآيات التي تحتج بها المشبهة فمنها قوله تعالى:﴿ ـ ئا ئا ئە ئە ﴾[23]، فهي دليل على أنه جسم؛لأنَّه لا يجيء إلا إلى مكان هو ليس فيه، وإذا جاء إلى مكان هو فيه جاز أن يخرج منه وهو فيه[24].

ويحتكم الجاحظ إلى لغة العرب،وإلى القرآن الكريم للرد عليهم؛ذلك بأن الله سبحانه وتعالى خاطب الأصمّ والأبكم والذين لا يعقلون، يقول: ((فإن قالوا: إنَّ العرب قد تسمِّي

---

(17) الرد على المشبهة، رسائل الجاحظ: 5/4.

(18) ينظر: الحيوان، الجاحظ:90/4.

(19) ينظر: الرد على المشبهة، رسائل الجاحظ:5/4-10.

(20) سورة الشورى:11.

(21) ينظر: الرد على المشبهة، رسائل الجاحظ:6/4.

(22) ينظر: الكشاف، الزمخشري:1098/2.

(23) سورة الفجر:22.

(24) ينظر: الرد على المشبهة، رسائل الجاحظ:13/4.

المتعاميَ أعمى، والمتصامم أصمَّ، ويقولون لمن عَمِلَ عمَلَ من لا يعقل: لا يعقل،إنَّما الكلام محمولٌ على كلام. وذلك بأنَّ المتعامي إذا تعامى،صار في الجهل كالأعمى، فلمَّا أشبهه من وجهٍ سمِّي باسمه))[25]، فالله سبحانه وتعالى خاطب الصم البكم، بقوله:﴿ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ﴾[26]، وهم أصحاء غير منقوصين، فلو كانوا غير أصحاء ناقصين، لكان كلفهم ـ سبحانه وتعالى ـ ما لا يطيقون وهذا منافٍ للعدالة الإلهية، لأنَّه لو كلفهم ذلك كان جائراً ظالماً،وإذا كان ذلك لا يليق به سبحانه علمنا أنَّهم كانوا أصحاء غير منقوصين، وإذا كانوا كذلك صار الواجب أن نحكم بالفرع والمجاز وندع الأصل والمحمول عليه[27].والجاحظ يستند في ذلك إلى مقدرته الحجاجية في دعم حججه بالادلة المقنعة،ولا سيما من القرآن الكريم ،وبالمقابل هو يحاول تضعيف حجج الخصم من المشبهة.

فقد استعمل الجاحظ القياس للاستدلال على نفي المجيء، بقضيتين صغرى وكبرى ونتيجة، وإنَّ العرب تقول في ذلك: ((جاءنا فلان بنفسه، وجاءنا بولده، وجاءنا بخير كثير، وذلك على معانٍ مختلفة.ويقولون:جاءتنا السّماءُ بأمرٍ عظيمٍ،والسّماءُ في مكانها))[28].فجاء تختلف باختلاف السياق وقد أورد الجاحظ تلك الأمثلة ليبين أنَّ (جاء) في هذه الآية القرآنية لم يرد بها المجيء الجسدي.والغريب أن الجاحظ لم يؤول الآية كما فعل بعض المفسِّرين والبلاغيين، ومنهم السمرقندي وعبد القاهر الجرجاني،فهما يذهبان إلى أن هناك محذوفا تقديره (أمر) وبذلك يكون المعنى في غير القرآن(وجاء أمر ربك) [29]،أو الزمخشري الذي يرى أنها تمثيل لظهور آيات الله واقتداره وتبين آثار قهره[30].

وردَّ الجاحظ على الفرق الإسلامية المشبهة، فضلا عن أهل الديانات الأخرى التي تقول بالتشبيه ((الذي كان عليه جماعتهم إلاَّ من خالفهم من متكلِّميهم ومتفلسفيهم، فإنَّهم يقولون بالتَّشبيه والتجسيم فراراً من كثرة الشَّناعة وعجزاً عن الجواب))[31]

---

(25) ينظر: المصدر نفسه : 15/4.

(26) سورة البقرة:171.

(27) ينظر:الرد على المشبهة، رسائل الجاحظ: 15/4.

(28) المصدر نفسه:15/4.

(29) ينظر:بحر العلوم،السمرقندي:477/4،أسرار البلاغة،عبد القاهر الجرجاني:251.

(30) ينظر:الكشاف،الزمخشري:1354/2.

(31) الرد على النصارى، رسائل الجاحظ: 351/3.

والذي يؤخذ على الجاحظ أنَّه يسأل ويجيب على لسان اليهود والنصارى يقول: ((قد جعلنا في جواباتهم وقدَّمنا مسائلهم، بما لم يكونوا ليبلغوه لأنفسهم ليكون الدَّليل تامًّا والجواب جامعا))[32]، وحجته في ذلك أنه يكون منصفاً في الكتابة فيعلم القارئ أنه لم يغتنم عجزهم وغفلتهم!![33].وهذا ما جعل ابن قتيبة يتهمه بأنَّه أراد تنبيه النصارى على ما لا يعرفون وتشكيك الضعفة من المسلمين[34]، فهو يذكر الأخبار التي نقلها القرآن الكريم كقوله تعالى:﴿ ي ي ې ې ى ئا ﴾[35] ولم يذهب الجاحظ إلى قولهم بالتشبيه كما فعل مع الفرق الأخرى بل أخذ يلتمس لهم العذر ويجمع الأدلة العقلية والنقليَّة واللغوية لنفي التشبيه كما مر في الفصل السابق في المجاز.

ويعلل الجاحظ سبب ميل الناس للتشبيه بأنَّهم إلى الماديات والأشياء الملموسة أميل فالنصاري ((حين جعلوا ربَّهم إنساناً مثلهم بَخَعَتْ نفوسُهم بالهَيْبَةِ له لتوهُّمهم الرُّبوبيَّة واسمحت بالمودَّة لتوهم البَشَريَّة، فلذلك قدروا من العبادة على ما لم يقدر عليه من سواهم. وبمثل هذا السَّبب صارت المشبَّهة منَّا أعبد ممَّن ينفي التَّشبيه حتَّى ربمَّا رأيته يتنفس من الشوق إليه، ويشهق عند ذكر الزيارة، ويبكي عند ذكر الرَّؤية، ويُغشى عليه عند ذكر رفع الحجب وما ظنُّك بشوق من طمع في مجالسة ربِّه عزَّ وجلَّ ومحادثة خالقه عزَّ ذكره))[36].وهذا ما ذكره القرآن في قصة موسى (عليه السلام) مع بني إسرائيل قال تعالى:﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[37]،لأنَّ الإنسان إلى الماديات أميل، لذلك وصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين بأنَّهم يؤمنون بالغيب.

وخلاصة القول إن الجاحظ حاول الرد على المشبهة باستعمال علم الكلام، مما جعله يذكر حججهم ثُمَّ يرد عليها، مستنداً في ذلك إلى لغة العرب،وآيات القرآن الكريم، غير أنه لم يؤول الآيات كعادته تأويلاً مجازياً صريحاً كما فعل السمرقندي أو الزمخشري، وربمّا كان السبب في

---

[32] المصدر نفسه:3/349.

[33] ينظر: الرد على النصارى، رسائل الجاحظ: 3/349.

[34] ينظر: تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة:75.

[35] سورة المائدة:64.

[36] حجج النبوة، رسائل الجاحظ:3/253.

[37] سورة الأعرف:138.

ذلك لأن هذا الكتاب لم يضعه للعامة، وإنما وضعه للخاصة الذين لهم دراية باستعمالات العرب، وعاداتهم اللغوية.

2ـ نفي الرؤية:

نفي الرؤية من المسائل الكلامية التي تصدَّى لها الجاحظ ضمن مباحث نفي التشبيه، وهي ترجع إلى أصل التوحيد وتنزيه الذات الإلهية والمقصود بنفي الرؤية عدم جواز رؤية الله سبحانه وتعالى في الدُّنيا والآخرة لا لمانع[38]، وقد استدل الجاحظ ـ كعادته ـ بأدلة عقلية ونقلية من القرآن والحديث النبوي.

إنّ قضية الرؤية مسألة خلافية انقسم المسلمون حيالها على طائفتين:

الطائفة الأولى: وهم أهل العدل والتوحيد من المعتزلة والشيعة والزيدية والخوارج وبعض المرجئة، فهم يذهبون إلى عدم جواز رؤية الله بالبصر، ولا يدرك وجهه لا لحجاب أومانع لكن لأنَّ ذلك يستحيل عليهم[39].

الطائفة الأخرى: وهم أصحاب الحديث والحشوية[40] والأشعرية ومن ينصر مقالتهم الذين ذهبوا في مذهبين: قال قسم منهم إنَّه يُرى في الدُّنيا والآخرة، وقال القسم الأخر أنه يرى في الآخرة فقط،وإنه جسم بلا كيف وإنَّ له عينين بلا كيف لقوله سبحانه وتعالى:﴿ڑ ڑ﴾[41]، وان له وجهاً كما قال عز اسمه:﴿ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ﴾[42]، فهم يحملون الآية على الظاهر من دون تحديد الكيف[43].

والجاحظ مع الطائفة الأولى؛ لذا استدل بأدلتهم وعرض فكرتهم فهو يلجأ إلى ثلاث وسائل للرد على القائلين بالرؤية هي:

الوسيلة الأولى: كان يميز المحكم من المتشابه ويعدّ ما يستند إليه من الآيات محكماً يستدل بظاهره، في حين انه يجعل ما يدعم حجة الخصم متشابهاً يحتاج إلى التأويل.

---

[38] ينظر: المغني في أبواب التوحيد، للقاضي عبد الجبار:139/4.

[39] ينظر: المغني في أبواب التوحيد، للقاضي عبد الجبار:139/4، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، الأشعري: 129-131.

[40] الحشوية :هم الذين يحشون الأحاديث التي لا أصل لها في الأحاديث المروية عن الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وجميعهم يقول بالجبر والتشبيه ويصفون الله بالنفس واليد والسمع والبصر ويذهبون إلى أن كل حديث يأتي به الثقة من العلماء حجة أيا كانت الواسطة.ينظر:المقالات والفرق،سعيد بن عبد الله الاشعري:136.

[41] سورة القمر:14.

[42] سورة الرحمن:27.

[43] ينظر: المغني في أبواب التوحيد، القاضي عبد الجبار:139/4، مقالات الإسلاميين، الاشعري:170.

الوسيلة الثانية: إنَّه يجعل غاية التأويل رفع التناقض الذي يمكن أن يوحد بين أفكارهم العقلية عن الله وبين ظاهر الآيات التي يستشهد بها الخصم التي يعدها المعتزلة،ومنهم الجاحظ متشابهاً.

أمّا الوسيلة الثالثة وتظهر في إنكار حق الخصوم، وقدرتهم على معرفة الآيات والأحاديث المروية وفهمها،لأنَّ صحة السمع موقوف على العدل والتوحيد وهي قضايا عقلية[44].

والدليل الأول على نفي الرؤية هو قوله تعالى:﴿ ٹ ٹ ٹ ﴾[45]، ويرى المشبهة أنَّ الآية مبهمة وخرجت مخرج العموم، والعام غير الخاص. لأنَّه سبحانه وتعالى قال ـ أيضاً ـ:﴿ ﭗ ﭘ ﭙ * ﭛ ﭜ ﭝ ﴾[46]، ولو لم تنزل هذه الآية لعلمنا انه قد استثنى الآخرة من جميع الأبصار[47].

يورد الجاحظ احتجاج المشبهة بأن الآية مبهمة عامَّة، ولم تخصص وهو يوافقهم الرأي ويذكر حججهم ومنها أنّه سبحانه قال:﴿ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﴾[48]، وقوله تعالى:﴿ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﴾[49]، لكنه سبحانه خصص الآيتين المذكورتين آنفا، بقوله:﴿ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﴾[50]، فإنه خصص الآية الأولى بالثانية[51]، فضلا عن أنَّ النظر إذا علق بالوجه لم يحتمل إلا الرؤية وقد تعلق بـ(إلى) فهو لا يحتمل إلا الرؤية البصرية ولا يحتمل الانتظار. أمّا رد الجاحظ فكان لا اختلاف في قوله إنَّه لا يطلعهم على الغيب في لفظه ولا في معناه عنده، لكنه عند خصومهم فيه أشد الاختلاف، وظاهر لفظه يحتمل وجوهاً أخرى فضلا عن أنَّ الفقهاء وأصحاب التفسير يختلفون في تأويله، في حين لا يختلفون في تأويل :﴿ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﴾[52].

---

(44) ينظر: الاتجاه العقلي في التفسير دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة، د. حامد نصر أبو زيد:194.

(45) سورة الأنعام:103.

(46) سورة القيامة:22-23.

(47) الرد على المشبهة، رسائل الجاحظ:8/4.

(48) سورة النمل:65.

(49) سورة آل عمران:179.

(50) سورة البقرة:255.

(51) ينظر: الرد على المشبهة، رسائل الجاحظ:8/4.

(52) سورة آل عمران:44.

والغريب أنَّ الجاحظ لم يلجأ إلى اللغة مثلما فعل القاضي عبد الجبار في تناوله القضية؛لأنَّ الإدراك بالبصر والرؤية بالبصر يفيدان فائدة واحدة هي المعاينة، والإدراك إذا قرن بالبصر يعني الرؤية البصرية، وإن أطلق فإنَّه يعني اللحوق، ومنه قوله تعالى:﴿ ٹ ٹ ڤ ڤ ﴾[53]، فإذا كان كذلك فالآية في باب الدلالة على أنَّه لا يرى بتقدير في غير القرآن (لا تراه الأبصار)[54].

والدليل الثاني للمشبهة هو قوله تعالى:﴿ ﭙ ﭚ ﭛ * ﭝ ﭞ ﭟ ﴾، ويرد الجاحظ عليهم بذكر التفسير بالأثر فإنه روي عن ابن مهدي عن سفيان عن منصور عن مجاهد إنّه قال إنّها (تنتظر ثواب ربها) ويروي ذلك عن أبي معاوية عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح، ويقول: ((وأبو صالح ومجاهد من كبار أصحاب أبن عباس... ومن المقدمين في التفسير))[55].

أمّا الدليل العقلي على نفي التشبيه فيرجع إلى تصور الفرق بين (خالق ومخلوق)فالله لا يشبه الخلق بوجه من الوجوه فإذا كان مرئياً فقد أشبه الخلق في أكثر الوجوه[56].

وإذا كان الجاحظ قد اقتصر على الأثر في الرد على المشبهة في نفي النظر فإن القاضي عبد الجبار حاول التفريق بين (النظر) و(الرؤية)؛لأنَّ النظر تقليب الحدقة الصحيحة في الشيء التماساً لرؤيته، والرؤية إدراك الشيء، وعلى ذلك فليس كل من نظر رأى ؛لأنَّ الرؤية نتيجة للنظر، فضلاً عن أنَّ تعليق النظر بالرؤية مجاز وليس حقيقة، لأن الوجوه لا ترى ولا يصح أن ينظر بها، وإنما يقع النظر بالعين والمراد بـ(الوجوه) الإنسان كله لأنه مستحق لعبادته الثواب فضلاً عن أنَّ الضمير في (بها) لا يعود إلى الوجوه بل إلى العباد[57].

ومن الأدلة التي احتكم إليها الجاحظ قوله تعالى:﴿ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﴾[58].

---

(53) سورة يونس:90.

(54) المغني في أبواب التوحيد، القاضي عبد الجبار: 145/4ـ146.

(55) الرد على المشبهة، رسائل الجاحظ:9/4-10.

(56) ينظر: الرد على المشبهة، رسائل الجاحظ:10/4.

(57) ينظر: المغني في أبواب التوحيد، القاضي عبد الجبار:200/4ـ206، الاتجاه العقلي في التفسير، نصر حامد أبو زيد: 206- 207.

(58) سورة النساء: 153.

فالله سبحانه وتعالى استعظم الرُّؤية استعظاماً شديداً وغضب على من سأله ذلك، وأرداه وعذبه، وحذّر عباده أن يسلكوا سبيل الماضين، ثم يبسط الجاحظ الحجج:

الحجة الأولى: إذا كان الله تعالى حقيقة يجوز أن يُرى، وتدركه الأبصار والحواس، فالقوم سألوه أمراً ممكناً، وطمعوا في شيء ممكن، إذن لماذا غضب عليهم واستعظم سؤالهم هذا الاستعظام وضرب به مثلا وجعله غاية في الجرأة والاستخفاف بالربوبية؟[59].

فكان جواب المشبهة: ذلك لأنَّ الرؤية لا تكون في الدُّنيا، بل بالآخرة.ويرد الجاحظ عليهم بأنَّ الذي يجوز في الآخرة بقدرة الله يكون في الدُّنيا[60].

الحجة الأخرى: قال تعالى:﴿ ے ۓ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﴾[61]،دليل على استعظام الرؤية والغضب على السؤال؛لأن المقصود بـ(رأيت الله جهرة) المعاينة أو إعلان المعاينة.وقد قال سبحانه وتعالى:﴿ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﴾[62]، والجهر هو الإعلان والرفع والإشاعة[63].

جواب المشبهة: جاءَ في الأثر عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أنه قال : ((لا تُضَامون في رؤيته كما لا تضامون في القمر ليلة البدر))[64].

يعدّ الجاحظ هذا الحديث من المتشابه وقد أوله المشبهة؛ لأنهم يعتقدون أن أهل الجنّة إذا رفع عنهم الحجب دخلوا عليه وجلسوا على الكرسي عنده[65].

ولكن الجاحظ لم يذكر تأويله للرؤية، والرؤية ـ هنا ـ بمعنى العلم كما قال سبحانه وتعالى:﴿ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﴾[66][67].والحديث عند ابن قتيبة، صحيح لا يجوز على مثله

---

[59] ينظر: الرد على المشبهة، رسائل الجاحظ:10-11.

[60] ينظر: المصدر نفسه:10-11.

[61] سورة النساء:153.

[62] سورة النساء: 148.

[63] ينظر: الرد على المشبهة، رسائل الجاحظ : 4/11-12.

[64] المصدر نفسه: 4/12.الحديث في صحيح مسلم بن الحجاج،ولكن برواية مختلفة باللفظ هي: ((قال رسول الله(صلى الله عليه وسلم):هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحاب؟وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحاب؟ قالوا:لا،يارسول الله!قال: ما تضارون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامةإلَّا كما تضارون في رؤية أحدهما)):1/167.

[65] ينظر: الرد على المشبهة، رسائل الجاحظ:4/12.

[66] سورة الفرقان:45.

[67] ينظر: تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة:193.

الكذب ولا يناقضه، قوله تعالى:﴿ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ﴾[68]، وقول موسى (عليه السلام) :﴿ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ﴾[69]؛لأنَّ معنى (لا تدركه الأبصار) في الدنيا وليس بالآخرة، ولم يرد النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) التشبيه بالقمر في كل حالاته من التدوير والمسير والحدود، ولكن وقع التشبيه في النظر إلى الله سبحانه وتعالى بوضوح كالنظر إلى القمر ليلة تمامه لا يختلف في ذلك اثنان؛لأنَّ الاختلاف يكون في أول الشهر[70].

فابن قتيبة وغيره من أهل السنة ومنهم الفخر الرازي يعتقدون بأنَّ الله سبحانه وتعالى يُرى في الآخرة ولكن من دون تحديد كيف[71]، ويحتج ابن قتيبة بأنْ لو كان كل من قال إنَّ الله يُرى يوم القيامة قد حدّ الله وكان مشبهاً ومن شبهه بالخلق فقد كفر ـ كما يقولون ـ إذن موسى (عليه السلام) نبأه الله وكلمة من شجرة إلى الوقت الذي قال له فيه(رب ارني انظر إليك) أيحكمون عليه بأنه مشبه[72].

ويقسم بأنَّ موسى سأل الله ذلك لعلمه أنّه يُرى يوم القيامة، بل يذكر رواية قرأها في الإنجيل في أنَّ المسيح (عليه السلام) حين فتح فاه بالوحي قال: ((طوبى للذين يرحمون، فعليهم تكون الرحمة للمخلصة قلوبهم، فإنهم الذين يرون الله تبارك وتعالى))[73]. ثم يقول:﴿ ٻ ٻ * ٻ ٹ ٹ ﴾[74]، ويقول في قوم سخط عليهم:﴿ ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ* ژ ژ ژ ک ﴾[75].

ويختم حديثه بالاستدلال على أن (الوجوه الناضرة التي إلى ربها ناظرة) هي لا تحجب إذا حجبت الوجوه[76].

ولكن المعتزلة يستدلون على نفي الرؤية بآيات أخرى يؤولونها منها، قوله تعالى ـ في قصة موسى (عليه السلام) ـ :﴿ ۇ ۇ ۆ ۆ﴾[77]. فإنه سبحانه إجابه:﴿ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې

---

(68) سورة الأنعام:103.

(69) سورة الأعراف:143.

(70) ينظر: تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة:191.

(71) ينظر: تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة: 190-193، مفاتيح الغيب، الرازي، مج 7، 102/13.

(72) تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة:: 192.

(73) المصدر نفسه:193.

(74) سورة القيامة: 22ـ23.

(75) سورة المطففين:15-16.

(76) تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة: 193.

(77) سورة الأعراف:103.

ﭵ ﭶ ﭷ﴾[78]، فنفى ذلك وأكده إذ علق الرؤية باستقرار الجبل ثم جعله دكاً، وتعليق الرؤية بالجبل يفيد التبعيد،وهو مذهب موجود عند العرب كقولهم: (لا كلمتك ما لاح كوكب أو أضاء الفجر)؛لأنهم يؤكدون الشيء بما لا يعلم أنَّه يقع على الشرط لكن على جهة التبعيد، وهذا وارد في القرآن الكريم،ومنه قوله تعالى:﴿ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ﴾[79]، هذا فضلا عن أدلة أخرى نصية (سمعية) وعقلية منها:

الدليل الأول: إنَّه سبحانه ليس بمرئي ونحن لا نراه في تلك الأوقات لا لمانع وعارض، بل لأنه لا يرى في ذاته، كما إنّا لم نرَ الطعم عند رؤيتنا للسواد لا لمانع لكن لأنه في ذاته لا يرى.

الدليل الثاني: إنّ البصر لا يصح أنَّ يرى إلا ما كان مقابلاً له، أو في حكم المقابل، فما اختص بذلك صح أنَّ يرى بالبصر وما خرج لا يصح أنْ يرى، أمّا الله سبحانه وتعالى فيرى لنفسه من دون الحاجة إلى حاسة، لذلك فهو يرى المرئيات وإنْ استحال كونه مقابلاً لها[80].

ونلحظ براعة الجاحظ في الاستدلال،وإن لم يبلغ مبلغ القاضي عبد الجبار الذي جاء بعده .ولكن ما يؤخذ على الجاحظ أنه كان غير منصفٍ في اتهامه بعض الفرق الإسلامية بالتشبيه وهم لم يقولوا بذلك قط، يقول: ((وكفى بالتشبيه قبحاً وهو قول يعمُّ اليهود وإخوانهم من الرَّافضة))[81].

فإذا كان المقصود بالرافضة الشيعة فإنَّ جل علمائهم ومفسريهم لا يقولون بالتشبيه وإنما اتهم هشام بن الحكم[82] بذلك، وهذا ما نقله الجاحظ عن النظام من أنَّه قال في الله تعالى إنّه جسم[83].

ولكن يجب أن تؤخذ هذه الدعوة من أفواه قائليها وليس من الخصوم وممَّا يدل على براءة هشام من هذه التهمة انه صاحب الإمام الصادق ثم الكاظم (عليهما السلام) وقد قال

---

[78] سورة الأعراف:103.

[79] سورة الأعراف:40.

[80] ينظر: المغني في أبواب التوحيد، القاضي عبد الجبار:140/4.

[81] الرد على النصارى، رسائل الجاحظ:351/3.

[82] هو أبو محمد هشام بن الحكم،مولى بني شيبان،كوفي الأصل،لكنه سكن في بغداد،ونزل في الكرخ،وهو من متكلمي الشيعة ممن فتق الكلام في الإمامة ،وأحد أصحاب الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام)،له مجالس ومناظرات كلامية،من كتبه:كتاب الإمامة،وكتاب الدلالات على حدوث الأشياء،وكتاب التوحيد وغيرها.ينظر:الفهرست،النديم:223.

[83] الحيوان،الجاحظ:11/3،الملل والنحل،الشهرستاني:184/1.

فيه الإمام الصادق: ((هشام بن الحكم رائد حقنا وسابق قولنا المؤيد لصدقنا والدافع لباطل أعدائنا، من تبعه وتبع أمره تبعنا ومن خالفه وألحد فيه فقد عادانا وألحد فينا))[84]. ولا يمكن ـ أيضاً ـ أن نجعل حكم فرد بمنزلة إدانة لكلِّ المذهب[85].

والذي تذهب إليه علماء الشيعة ومنهم الصدوق(ت381هـ)، نفي الرؤية في الدنيا والآخرة ويستندون في ذلك إلى الروايات المنقولة عن أئمتهم منها ما نقل عن الإمام الرضا (عليه السلام) حين سئل عن قوله تعالى:﴿ ﴾[86]، فقال: ((أوهام القلوب أدق من أبصار العيون، أنت قد تدرك بوهمك السند والهند والبلدان التي لم تدخلها ولا تدركها ببصرك فأوهام القلوب لا تدركه فكيف أبصار العيون))[87].

ومن ذلك ـ أيضاً ـ تفسير الشيخ الطوسي لقوله تعالى:﴿ ﴾ : فـ(ناضرة) الصورة الحسنة التي تملأ القلب سروراً عند الرؤية أما قوله تعالى(إلى ربها ناظرة) أي منتظرة نعمة ربها وثوابه أن يصل إليها[88].

وهذا ما يؤيده السياق، لأنّ الآية التي بعدها:﴿ ﴾[89]، لأنّ على الوجه تظهر علامات البشرى والفرح أو علامات البؤس والشقاء.

1ـ الإعجاز القرآني:

خصَّ الله سبحانه وتعالى نبينا محمداً (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بالقرآن الكريم معجزة له من سائر الأشياء، لما ساد في عصره من حسن البيان ونظم ضروب الكلام كالشعر والخطابة والأمثال وغير ذلك، وقد عنيت العرب بالفصاحة والبلاغة والبيان[90]، عناية بالغة وصلت بهم الحال، كما يروى أنهم كتبوا مجموعة من أجود قصائدهم علقوها على أستار الكعبة لذا سميت بالمعلقات[91].

ويرى الجاحظ أنَّ الله سبحانه وتعالى جعل القرآن حجة للنبي محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) كما جعل اليد والعصا حجة لموسى (عليه السلام) ،لأنَّ أعجب الأمور عند قوم فرعون

---

[84] الشافي في الإمامة، الشريف المرتضي: 85/1، 86.

[85] ينظر: المصدر نفسه: 85/1، 86.

[86] سورة الأنعام:103.

[87] التوحيد، الشيخ الصدوق:58.

[88] ينظر: التبيان، الطوسي:مج197/10.

[89] سورة القيامة:22-23.

[90] ينظر: حجج النبوة، رسائل الجاحظ: 279/3.

[91] ينظر: سيرة النبوية، ابن كثير:120/1.

السحر، فبعث الله موسى (عليه السلام) لإبطاله وتوهينه، وكشف زيفه، كذلك خصَّ عيسى (عليه السلام) بإحياء الموتى وإبراء الأكمه لأن الطب غالب في زمانه، فقد كانت غايتهم شفاء المرضى، وعلاج الرمد فضلا عن ذلك ما خصّه الله به من الآيات والعلامات الأخرى[92].

فالمعجزة ((لا تكون حجَّة حتَّى تعجز الخليقة وتخرج من حد الطاقة، كإحياء الموتى، والمشي على الماءِ وكفلق البحر، وإطعام الثِّمار في غير أوان الثِّمار، وكإنطاق السِّباع وإشباع الكثير من القليل))[93].

ومن هذا كان القرآن الكريم معجزة النبي محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، لأنّ العرب((أغلب الأمور عليهم ، وأحسنها عندهم، وأجلها في صدورهم حسن البيان ونظم ضروب الكلام مع علمهم له ، وانفرادهم به فحين استحكمت لفهمهم وشاعت البلاغة فيهم وكثر شعراؤهم وفاق الناس خطباؤهم بعثه الله عز وجل فتحداهم بما لا يشكّون أنّهم يقدرون على أكثر منه))[94].

وقد ذكر القرآن حال قريش أبان نزول القرآن في بلاغة المنطق ورجاحة الأحلام وصحة العقول، وذكر العرب وما فيها من الدهماء والنكراء والمكر ومن بلاغة الألسنة واللدد عند الخصومة فقال تعالى:﴿ گ ں ں ڻ ڻ ۀ﴾[95]، وقال عزّمن قائل:﴿ ٺ ٿ ٿ ٿ﴾[96] [97]. لذلك نزل القرآن بلسان عربي مبين، لكن القوم عجزوا عن الإتيان بمثله وإن اجتمعوا مع الجن وكان بعضهم لبعضٍ ظهيرا، بل بهروا ودهشوا لما سمعوه لما فيه من بهاء ورونق وجمال وسور ساحرة للعقول والألباب، فقال الوليد حين سمعه: ((والله لقد سمعت من محمدٍ كلاما ما هو من كلام الأنس ولا من كلام الجن، وإنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق))[98]. ففكروا كيف يقللون من شأنه،أهو شعر أم قول كاهن؟ لا بل: ما

---

[92] ينظر: سيرة النبوية، ابن كثير: 278/3، 279.

[93] حجج النبوة، الجاحظ: 259/3، 260.

[94] المصدر نفسه : 279/3.

[95] سورة الأحزاب:19.

[96] سورة مريم:97.

[97] ينظر: البيان والتبيين، الجاحظ: 7/1.

[98] السيرة النبوية، ابن هشام:270/1.

هو﴿ ﯙ ﯚ ﯛ ﴾[99] يفرق بين المرء وزوجه وبين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه والمرء وعشيرته[100].

فكان التحدي على ثلاث مراتب؛الأولى كانت بالقرآن كلّه، قال تعالى:﴿ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ﴾ [101]،ثم في المرتبة الثانية تحداهم أن يأتوا بعشر سورٍ مفتريات بقوله تعالى:﴿ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﴾[102] والمرتبة الثالثة أن يأتوا بسورة واحدة[103]، قال تعالى:﴿ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ﴾[104]. لكنَّهم على الرغم من فصاحتهم وبلاغتهم ورجاحة عقولهم بهتوا ودهشوا وعجزوا من أن يأتوا بمثله.حيث يروى أنَّ كفّار قريش أرادوا أنَّ يجاروا القرآن فعكفوا في بيوتهم أربعين يوماً يأكلون لباب البر ولحم الضأن ويشربون الخمر لتصفو أذهانهم وتنفتح قرائحهم، ولكنهم حين خرجوا وسمعوا قوله تعالى:﴿ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﴾[105]، التفت بعضهم لبعض وقال: ((هذا كلام لا يشبهه شيء من الكلام ولا يشبه كلام المخلوقين وتركوا ما أخذوا فيه وافترقوا))[106].

فكان القرآن معجزة النبي محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) باتفاق علماء العربية باختلاف مشاربهم، لكنَّهم انقسموا بإزاء هذا الإعجاز ، فقد أوصل الزركشي وجوه إعجاز القرآن إلى اثني عشر وجهاً[107]، لكن أظهر هذه الوجوه قسمان هما: قسم قال إنه معجز بالصرفة، وآخر قال إنَّه معجز بالنظم، والذي يلفت الانتباه أنَّ الجاحظ قال بالاثنين، فمرة يقول أنَّ الله سبحانه وتعالى صرف العرب عن التحدي، شأنه في ذلك شأن المعتزلة،ومرة يقول إنه معجز بنظمه وتأليفه .

---

[99] سورة المدثر:24.

[100] ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام:1/270-271.

[101] سورة الإسراء:88.

[102] سورة هود:13.

[103] ينظر: الطراز، العلوي:3/207.

[104] سورة البقرة:23.

[105] سورة هود:44.

[106] مجمع البيان، الطبرسي: 12/164.

[107] المصدر نفسه: 12/164.

2 ـ خلق القرآن[108]:

إنَّ قضية خلق القرآن،ويسميها المؤرخون "محنة خلق القرآن" من المسائل التي ترجع ـ عند المعتزلة ـ إلى أصل التوحيد وتنزيه الذات الإلهية،فالقول بقدم كلام الله يؤدي إلى الشرك، إذ يكون هناك قديمان، لذا سعت المعتزلة جاهدة لإثبات حدوث القرآن الكريم[109].

وأوَّل من قال بفكرة (خلق القرآن) الجعد بن دريهم وجهم بن صفوان وغيلان الدمشقي، وقد دفع هؤلاء الثلاثة حياتهم ثمناً لمقالتهم بنفي الصفات وخلق القرآن[110].

ثم أعلن هذه القضية المريسي جهراً إذ يرى أنَّ القرآن مخلوق وإنّ الله لم يتكلم بحرف واحد منه، ودليله على ذلك بأنَّ القرآن إمّا أن يكون شيئاً وإمّا لم يكن، وليس جائزاً أن يقال:إنَّ القرآن ليس بشيء؛ لأنّه كفر فيتعين أن يكون شيئاً[111]، فإذا كان شيئا كان مخلوقا.

وقد دافعت المعتزلة عن هذه العقيدة والذب عنها بإزاء خصومهم، وكان نصيب الجاحظ في ذلك رسالة بعنوان (من كتابه في خلق القرآن) منشورة في مجموعة رسائل الجاحظ بتحقيق عبد السلام محمد هارون، لكن رشيد خيون يدّعي أنَّ هذه الرسالة مفقودة مع مجموعة رسائل السندوبي وساسي، وأنها غير موجودة أيضاً في مجموعة عبد السلام مكتبة الخانجي، يقول: ((كذلك لم ينشرها عبد السلام محمد هارون في مجموعة رسائل الجاحظ مكتبة الخانجي 1964م))[112].

والغريب أنَّ هذه الرسالة موجودة في تلك المجموعة، لسنة 1979م، ونصها مطابق لما جاء في كتاب رشيد خيون[113].

وما يعنينا هنا هو ماذا يقصد الجاحظ بخلق القرآن؟، وما الذي استند إليه من القرآن ليعزز به رأيه؟. يحدد الجاحظ خلق القرآن بأنَّه((جسم وصوت، وذو تأليف وذو نظم، وتوقيع وتقطيع، وخلق قائم بنفسه، مستغنٍ عن غيره مسموع في الهواء،ومرئي في الورق مفصَّل وموصَّل، واجتماع وافتراق، يحتمل الزِّيادة والنُّقصان، والفناء والبقاء، وكل ما احتملته

---

[108] يحد بعض الدارسين خلق القرآن بأنه ((القول بحدوث القرآن الكريم ووصفه بالوضع الذي عليه، والمكتوب في المصاحف، والمتلو بالألسنة، المنسوب إلى الله تعالى وقدرته)). مشكلة خلق القرآن عند المتكلمين، عادل عبد الله الشيرواني:52.

[109] ينظر: الملل والنحل، الشهرستاني:45/1.

[110] ينظر: ثورة العقل دراسة فلسفية في فكر معتزلة بغداد، د. عبد الستار عز الدين الراوي:207.

[111] ينظر: المصدر نفسه:207.

[112] ينظر: جدل التنزيل مع كتاب خلق القرآن، للجاحظ، خيون:378.

[113] ينظر: خلق القرآن، رسائل الجاحظ:3/ 285،وما بعدها.

الأجسام ووصفت به الأجرام. وكلُّ ما كان كذلك فمخلوق في الحقيقة دون المجاز وتوسيع أهل اللغة))[114].

ويتضح من ذلك أنَّ الجاحظ يرى في القرآن ما يأتي:

أولا: أنه جسم وصوت ذو تأليف، وربَّما هذا الرأي قاد بعض معاصريه إلى أن يقول:إنّ الجاحظ قال: ((إنّ القرآن جسد يجوز أن يقلب مرة رجلا ومرة حيوانا))[115]، لكنه يقول: ((وأما قولهم:إنّ للقرآن قلباً وسناماً وشفتين وإنه يقدس ويشفع فإن هذا كله يجوز أن يكون مثلا، ويجوز أن يجعله الله كذلك إذا كان جسما))[116].

ولعله يقصد بجسم وصوت أنه مشابه للجسم إذ يخترع كما تخترع الأجسام، وأنه يحتمل التقطيع كاحتمال الأجرام المتجسدة[117].

أمّا قوله(صوت) أي عرض لا يحدث بجوهر إلا بدخول جوهر آخر عليه كاصطدام جسمين كقرع اللسان باطن الأسنان[118].وهذا ما توصل إليه علم اللغة الحديث من أنَّ الأصوات تحدث نتيجة قرع بجسم،ونفخ جسم،واحتكاك جسمين وبتأثير الأجزاء المتحركة كاللسان تتغير الأصوات[119].

ثانيا: أنه خلق قائم بنفسه، أي ليس قديماً كقدم الذات الإلهية بل خلقه الله وأحدثه[120].

ثالثا: أنه مسموع، وتستند المعتزلة في ذلك، إلى ما جاء في القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ **ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ**﴾[121]،والسامع يسمع هذه الحروف والأصوات فلا ريب أنَّ هذه الحروف والأصوات محدثة، وهذا يؤكد بأنَّ كلام الله تعالى محدث[122].

رابعا: أنه مرئي بالورق، أي حينما تنتظم الحروف في الكتابة على الورق فإنه يكون مرئيا ظاهرا للعيان[123].

---

[114] خلق القرآن، رسائل الجاحظ:3/290.

[115] الملل والنحل، الشهرستاني:1/76.

[116] خلق القرآن، رسائل الجاحظ:3/299.

[117] ينظر: المصدر نفسه :3/289.

[118] ينظر: المصدر نفسه :3/290.

[119] ينظر: علم اللغة،د.مسعود السعران:140ـ142.

[120] ينظر: خلق القرآن، رسائل الجاحظ :3/291.

[121] سورة التوبة:6.

[122] ينظر: خلق القرآن، رسائل الجاحظ:3/66.

وكل ما اجتمعت فيه هذه الصفات فهو مخلوق في الحقيقة وليس في المجاز وتوسيع اللغة[124].

وهذا ما تذهب إليه المعتزلة أنَّ ((كلام الله عزّ وجلّ من جنس الكلام المعقول والشاهد، وهو حروف منظومة وأصوات مقطعة. وهو عرض يخلقه الله سبحانه في الأجسام على وجه يُسمع ويُفهم معناه، يؤدي المَلَكُ ذلك إلى الأنبياء (عليهم السلام) بحسب ما يأمر به عزّ وجلّ ويعلمه صلاحاً، ويشمل على الأمر والنهي والخبر وسائر الأقسام ككلام العباد))[125].

لكن فرقة الأشاعرة رأت أنَّ الكلام ليس الصوت الواقع على بعض الوجوه، بل الكلام على الإطلاق في حقّ الخالق والمخلوق، بل هو المعنى القائم بالنفس مرة يظهر بالصوت، وأخرى بالكتابة، وثالثة بالإشارة كما هو عند الأصم والأبكم. وكلام الخلق مخلوق مثلهم،ولكن كلام الله ليس بمخلوق أزلي مثله سبحانه وتعالى[126].

والجاحظ يلتمس الأدلة من القرآن نفسه، ومن لغة العرب، لأنّ الخلق عند العرب إنما هو التقدير نفسه، فإذا قالوا خلق كذا وكذا أي قدر، وكذلك قوله تعالى:﴿ ﯙ ﯚ﴾[127]، وقوله تعالى:﴿ ﭫ ﭬ﴾[128]، وقوله جلّ وعلا:﴿ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ﴾[129].

لكنَّ المشككين في خلق القرآن قالوا: ((صنعه وجعله وقدَّره وأنزله وفصَّله وأحدثه ومنعوا خلقه.وليس تأويل خلقه أكثر من قدره))[130].والخلق عند الجاحظ هو التقدير نفسه،فهو يرى أنهم لو بدلوا قولهم قدره ولم يخلقه بـ(خلقه ولم يقدره)ما كانت المسألة عليهم إلاَّ من وجه واحد[131].

ويحتج الجاحظ بالأدلة العقلية المستندة إلى القرآن الكريم في أنَّ الله سبحانه وتعالى يبّدل آية مكان آية وينسخ آية بآية ويستطيع أن يذهب بهذا القرآن ويأتي بغيره،وهذا كلُّه في

---

(123) ينظر: خلق القرآن، رسائل الجاحظ :290/3.

(124) ينظر: المصدر نفسه :291/3.

(125) ينظر:المغني في أبواب التوحيد، القاضي عبد الجبار :3/7.

(126) ينظر: الإنصاف، الباقلاني:107-108، الفلسفة الإلهية عند المعتزلة:107.

(127) سورة المؤمنون:14، سورة الصافات:125.

(128) سورة العنكبوت:17.

(129) سورة المائدة:110.

(130) النابتة، رسائل الجاحظ:18/2-19.

(131) المصدر نفسه:19/2.

الكّاب مسطور[132]،وقوله تعالى:﴿ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ﴾[133]،يرى أنَّ القرآن يغيّر أو يبدّل بغيره أو يجتزأ منه، وهذا يدلّ على حدوثه، وهذه الصفات تستحيل على القديم، فضلا عن أن تحدّي النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) للعرب وتقريعه إياهم بالعجز يقتضي حدوثه؛ لأن التحدّي لا يكون بالقديم[134].

على حين يؤول الجاحظ معنى (كلمات) في الآية الكريمة فيرى أنَّها لا تعني القول والكلم المؤلف من الحروف، بل هي النعم والأعاجيب والصفات[135]. وهذا الوجه من التأويل وارد عند بعض المفسرين بأنَّ المراد ((مقدوراته جلّ وعلا وعجائبه)) [136].

وهناك وجه آخر هو عدم تناهي كلمات الله ،أي لو أنَّ ما في الأرض من شجر أقلام والبحر ممدود بسبعة أبحر وكتبت الأقلام بذلك المداد كلمات الله تعالى ما نفدت لعدم تناهيها، لكن تلك الأقلام والمداد ينفد لتناهيها[137].

وهذا الوجه يستدل به المعتزلة على أنَّ كلام الله مخلوق، ولكن الجاحظ في هكذا رسائل كرسالة نفي التشبيه والرد على المشبهة وخلق القرآن، يأتي بأدلة مقتضبة على الرغم من احتجاج المعتزلة بأدلة كثيرة،وأكثر ما يكون حديثه عن سبب وضعه للرسالة، ويبدو أن هذه الرسالة وضعت في زمن المعتصم العباسي ووزيره أحمد بن دؤاد وفيها يصف الجاحظ موقف أحمد بن حنبل حين امتحنه المعتصم في قضية خلق القرآن[138].

3ـ تشريع من القرآن الكريم:

الشرع أمر من الأمور التي تعد من العقيدة؛ لأنّه مبنيّ على معرفة الحلال والحرام والإيمان بذلك، وإن كان يستنبط من النص القرآني أو السنة النبوية.

والشرع ما شرع الله للعباد من أمر الدين وأمرهم بالتمسك به من صلاة وصوم وحج[139]،يقال للطريق والنهج شرع، ثم استعير هذا اللفظ للطريقة الإلهية[140]، قال تعالى:﴿ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ﴾[141].

---

[132] ينظر: خلق القرآن، رسائل الجاحظ:295/3.

[133] سورة لقمان:27.

[134] ينظر: المغني في أبواب التوحيد، القاضي عبد الجبار:89/7.

[135] ينظر: الحيوان، الجاحظ:209/1.

[136] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي:135/21.

[137] المصدر نفسه:135/21.

[138] خلق القرآن، رسائل الجاحظ:292/3.

[139] ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة (شرع):262/3،

وقد تطرق الجاحظ إلى بعض مسائل الشرع وأحكامه، وله كتاب في الفتيا كتبه إلى أبي عبد الله أحمد بن دؤاد الإيادي، لكن لم يصل إلينا من هذا الكتاب إلا أهداءه[142]، وقد أشار إليه في كتاب الحيوان بقوله: ((وعبتَ كتابي في أصول الفتيا والأحكام))[143].

وله مسألة في تحريم الخنزير جاءت في كتاب الحيوان، سأله عنها سائلون مختلفو المشارب((منهم من أراد الطعن، ومنهم من أراد الاستفهام، ومنهم من أحبّ أن يعرف ذلك من جهة الفتيا، إذ كان قوله خلاف قولنا))[144].

والسائلون يرون أنَّ قوله تعالى:﴿ ﭐ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ﴾[145]،ذكر فيها لحم الخنزير من دون سائر أجزائه من رأس ومخ وعصب، ولم يذكره كما ذكر الميتة بأسرها أو الدم؛ لأنّ القول واقع عليها بجميع أجزائها مشتمل على خصالها بلفظ واحد هو العموم[146].

ويعترضون على التحريم، إذ لا يقاس هذا على الخنزير؛ لأنّه ذكر اللحم من بين سائر الأجزاء، فإذا لم يكن فرق بين اللحم والشحم والعظم كان ينبغي ـ إذا قال:﴿ ﭐ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﴾ـ أن تحرموا الشحم، ولكنه ذكر اللحم، فلماذا حرمّتم الشحم؟. ولماذا تحرمون الشحم عند ذكر غيره من الأجزاء؟[147].

ويستعمل الجاحظ أسلوباً منطقياً جدليّاً في النقاش؛ لأنَّه باب من أبواب النقاش الكلامي لعرض القضية، لكنَّه يرد عليها بمذهب جديد في التفسير، إذ يلجأ فيه إلى تفسير القرآن في ضوء عادات العرب الكلامية والاستعمال اللغوي لها[148].

فالمسألة يكمن حلها في ما ((للنَّاس من عادات وكلام يعرف كل شيء بموضعه، وإنما ذلك على قدر استعمالهم له،وانتفاعهم به))[149].

---

(140) ينظر: المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني:267.

(141) سورة المائدة:48.

(142) ينظر: في كتاب الفتيا، رسائل الجاحظ:313/1.

(143) الحيوان، الجاحظ:9/1.

(144) المصدر نفسه:74/4.

(145) سورة المائدة:3.

(146) ينظر: الحيوان، الجاحظ:75/4.

(147) ينظر: المصدر نفسه:75/4.

(148) ينظر: النقد المنهجي عند الجاحظ، د. داود سلوم:132.

(149) الحيوان، الجاحظ:75/4.

ومن أمثلة استعمالات النَّاس للغة أو عاداتهم الكلامية،إنه((ربَّما يقول الرجل لوكيله :اشترِ لي بهذا الدينار لحماً،أو بهذه الدرهم، فيأتيه باللّحم، وفيه الشحم، والعظم، والعرق، والعصب والغضروف، والفؤاد،والطّحال، والرئة، وببعض أسقاط الشاة وحشو البطن))[150].وكل ذلك يسمى لحماً.

فهذا الأسلوب يسمى في المنطق الاستنتاج[151]، ذلك بأنَّ كلاً من اللحم والعظم والعصب والعرق والغضروف إلى غير ذلك يعد لحما، وتحريم اللحم يعني تحريم أجزائه، لذلك فأجزاء الخنزير كلُّها محرَّمة[152].

ومن تلك العادات الكلامية عند الجاحظ أن يقول الرجل: أكلت لحما، وإنما هو أكل رأساً، أو كبداً، أو سمكاً، ولم يكن كاذباً، فالناس يمكنهم أنْ يضعوا كلامهم حيث أحبُّوا، لأنّ في اللغة من المجاز والتوسع ولهم ذلك إلا في المعاملات[153].

والعرب تسمي الرجل الصانع نجَّاراً،وإن كان لا يعمل بالمثقب والمنشار ونحوه، وتسمِّيه خبَّازاً وإن كان يطبخ ويعجن، كما تسمِّي الهودج ظعن فلان، وإن كانت فيه امرأة واحدة على المجاز والتوسع[154]. كذلك القرآن الكريم،سمى السمك لحما قال تعالى:﴿ ۆ ۈ ۇٴ ۋ ۅ ۉ ۋ ۋ ې ې ﴾[155].

ويخلص الجاحظ إلى القول إنَّ اللحم هو العمود الذي إليه يقصد،وصار في أعظم الأجزاء قدرا، لذلك دخلت سائر تلك الأجزاء في اسمه كالشحم، والعظم، والجلد، والشعر[156].

وإذا ما عدنا إلى كتب التفسير لنلتمس أدلة الجاحظ في هذه المسألة نرى أنَّ الطبري يفسر قوله تعالى:﴿ ٻ پ﴾ بأنَّ المراد ظاهره وباطنه، أي حرمه جميعا ولم يخصص[157].

---

[150] المصدر نفسه:75/4.

[151] الاستنتاج: هو انتقال الذهن من الحكم العام إلى أجزائه، ينظر: المعجم الفلسفي،د. جميل صليبا:77/1.

[152] ينظر: الحيوان، الجاحظ:75/4.

[153] ينظر: المصدر نفسه:76/4.

[154] ينظر: الحيوان، الجاحظ:76/4.

[155] سورة النحل:14.

[156] ينظر: الحيوان، الجاحظ:75/4.

[157] ينظر:جامع البيان في تأويل آي القرآن، الطبري:82/6.

أمّا الجصاص فيرى أنه سبحانه وتعالى خصّ اللحم بالذكر لأنَّه أعظم المنفعة تقع به،والمراد تحريمه كله مثل تحريم قتل الصيد على المحرم،والمقصود تحريم كل أنواع الصيد على المحرم[158].

ويستدل الطباطبائي على تحريم الخنزير من القرآن نفسه، ذلك بأنَّ آية الأنعام عللت تحريم الثلاثة: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وخصوصا لحم الخنزير؛ لأنَّه رجس، والله سبحانه وتعالى يقول:﴿ ۆ ۆ ﴾[159] [160].

قد اختلف الفقهاء حول الانتفاع بما لا يؤكل من الخنزير نحو: جلده، وشعره، فقال بعضهم بجواز الانتفاع به،ولكن أغلبهم يرى تحريم جميع أجزائه عندهم بما فيه الشعر[161].

نلحظ أنَّ الجاحظ تصدّى للإجابة عن هذه المسألة الخلافية حين سأله ثلاثة أصناف من الناس: طالب فتيا، وسائل يريد الاستزادة، وطاعن في هذه الآية يرى فيه أنه تحريم جنس واحد هو اللحم، والمراد تحريم جميع الخنزير، فكان جوابه: من عادات الناس في كلامهم وهو تسمية الشيء بغير اسمه على سبيل التوسع والمجاز،ومن استعمال القرآن لمفردة اللحم والمقصود السمك وأخيرا باستعمال القياس المنطقي المسمى بـ(الاستنتاج)، وبذلك فوت الفرصة على الطاعنين، وأفاد وزاد وأفتى السائلين.

ولعلّ أهم دليل عند الجاحظ التي يظهر عبقريته في البحث عن المعنى التداولي ـ في هذه المسألة وغيرها ـ الذي يتحدد باستعمال اللغة في سياقها الاجتماعي والتاريخي، والعناية بوحدة الشكل والمضمون الكائن والممكن بالتأويل الذي تضطلع به السيمياء التداولية[162]، ذلك بأنّ السيميائية مشروع يسعى إلى الكشف عن شبكة العلاقات اللغوية وما تحمله من دلالات لا

[158] ينظر: أحكام القرآن، الجصاص:115/1.

[159] سورة المدثر:5.

[160] ينظر:الميزان في تفسير القرآن،الطباطبائي:167/5.

[161] ينظر: أحكام القرآن، الجصاص:152/1.

[162] ميّز بعض الباحثين أربعة اتجاهات سيميائية هي: سيمياء التواصل، وسيمياء الدلالة، وسيمياء الثقافة، وسيمياء المعنى، أو السيميائية التداولية التي تخطت المظهر التواصلي اللساني الذي يعتمد المظاهر الجزئية انتقالاً إلى المظاهر العامة، ومنها المظهر الدلالي؛ لأنّ العلامات التي تستعمل في التواصل هي جزء من العلامات الدالة، والعلامات الدالة جزء من نطاق الثقافة بوصفها العلامة الشاملة، أي النص الشامل، أما المعنى فهو خاصية كونية توجد في جميع العلامات المجسدة منها والمجردة الكائنة والممكنة.ظ: معجم السيميائيات، فيصل الأحمر:85، 91-92، 97-98، السيمياء العامة و سيمياء الأدب، عبد الواحد المرابط:65-96.

متناهية غير ناتجة عن محتوى التعبير بل عن كيفية التعبير[163]؛ لذا تعتمد السيميائية التداولية على تضافر مكونين: لساني وبلاغي[164]؛ يضطلع المكون اللساني بمهمة تحديد الدلالة"Signification"، ويضطلع المكوّن البلاغي بمهمة ربط الدلالة بظروف التخاطب والسياق المقامي والمعطيات البلاغية عموماً لتحديد المعنى الاجتماعي أو النفسي"Sens"، وهذا ما لوحظ عند الجاحظ فهو اعتمد على عادات العرب الكلامية، والاستعمال اللغوي لمفردة اللحم التي يقصد منها اللحم والعظم والشحم والمخ إلى غير ذلك.

[163] ظ: معجم السيميائيات، فيصل الأحمر:235.

[164] ظ: ما التداوليات، بحث عبد السلام اسماعيلي علوي، ضمن كتاب التداوليات،علم استعمال اللغة، إعداد وتقديم د. حافظ اسماعيلي علوي:24.